لودفيج فان بيتهوفن

Ludwig Van BEETHOVEN

١٦ ديسمبر سنة ١٧٧٠ — ٢٦ مارس سنة ١٨٢٧

مولده ونشأته :

لم يعرف حتى يومنا هذا اليوم الذى ولد فيه لودفيج فان بيتهوفن على وجه التحديد ، ولكن الذى تأكد من وثائق كنيسة « سان ريمى » بمدينة بون بألمانيا هو اليوم الذى عمد فيه وهو ١٧ ديسمبر سنة ١٧٧٠ ولكن يعتقد بأنه ولد فى اليوم السابق أو اليوم الذى قبله لأن العادة جرت فى زمن ولادة بيتهوفن أن يعمد الأطفال بعد يوم أو يومين من ولادتهم بسبب كثرة وفاة الأطفال عند ولادتهم .

قيل بأن أجداد بيتهوفن من أصل بلجيكى وأن جده كان موسيقياً محترفاً يعزف فى الكنائس الكبيرة وأنه انتقل سنة ١٧٢٣ إلى مدينة بون ليكون موسيقياً فى بلاط الأميرة . كان والده « جوهان بيتهوفن » موسيقياً أيضاً وكانت له طريقة خاصة فى تعليمه الموسيقى ، كان يجبر لودفيج على العزف لعدة ساعات متوالية بل كان يوقظه من النوم — فى ساعة متأخرة من الليل عندما يعود إلى المنزل مخموراً — ويجبره على أن يعزف الموسيقى حتى الفجر باشراف موسيقى صديق له اسمه فيفر « Pfeiffer » عازف البيانو وزميله فى الشراب .

عندما لمس جوهان موهبة ابنه لودفيج الموسيقية بدأ يحلم بأن يجعل منه فناناً مرموقاً وناضجاً قبل الأوان .

والدة لود فيج اسمها « كاترينا كيرفيريتش » كان والدها طباخاً وكانت تعمل خادمة فى منزل ومتزوجة من خادم زميل لها توفى وتزوجت بعد وفاته من جوهان بيتهوفن والد لودفيج . كانت كاترينا سيدة على جانب كبير من الذكاء والجمال وانجبت من جوهان ثمانية أطفال . الأول اسمته « لود فيج » توفى بعد ساعات من ولادته ، وأسمت الثانى « لودفيج »

أيضاً على اسم شقيقه الذى توفى ، وهذا هو لود فيج الذى أصبح لود فيج فان بيتهوفن العظيم ، أنجبت بعده شارل ثم جان ثم ثلاثة أطفال ذكور وطفلة توفوا جميعاً فى سن مبكرة جداً .

فى هذا المجتمع القاسى نشأ لود فيج نشأة قاسية ولم يجد فيه من صدر حنون سوى صدر والدته التى عملت دائماً على ابعاده عن مشاكل والده ونزاعه معها بسبب إدمانه على الشراب والإفراط فيه ، وكانت للود فيج خير مثل للسماحة والصبر والشجاعة .

عندما بلغ لود فيج الثامنة من عمره أراد والده أن يقدمه إلى الجمهور فأقدم على أن ينظم له فى ٢٦ مايو سنة ١٧٧٨ أول حفل موسيقى ، بل وأعلن جوهان بأن ولده لود فيج الذى سيقود الأوركسترا يبلغ من العمر ست سنوات فقط حتى يكون الحفل أكثر إثارة للرأى العام ، وكان هذا الحفل بداية لمعرفة الناس ببيتهوفن الصغير الصاعـد .

كان لبيتهوفن منذ طفولته وجه ذو مظهر عنيف ، فرأسه كبيرة وشعره دائماً أشعث ، جسمه قصيراً وضخماً ، وكان بطبعه يميل إلى الكآبه والحزن .

أول أستاذ حقيقى للود فيج هو « كريستيان جوتلوب نيف » (١٧٤٨ — ١٧٩٨) وقد تتلمذ لودفيج على يديه سنة ١٧٨١ وماهى ألا بضع سنوات قليلة حتى بدأ لود فيج يكتب عدة مقطوعات موسيقية ، وعندما بلغ الرابعة عشرة من عمره حصل بمساعدة أستاذه « نيف » على عمل كعازف ثان على الأرغون بمرتب سنوى قدره مائة وخمسون فلورين وكان يعتبر هذا المرتب مرتباً مرتفعاً بالنسبة إلى سنه فساعده هذا المرتب على مواجهة مطالب عائلته نظراً لإفراط والده فى الشراب وانخفاض دخل الأسرة .

رغبة لودفيج فى الهجرة إلى فينـــا :

بدأ لود فيج يحلم بالسفر إلى فينا ، مدينة الموسيقى ، لكى يقابل « موزار » العظيم الذى كان فى أوج عظمته . (وولفجانج آماديوس موزار (٢٧-١-١٧٥٦ — ٥-١٢-١٧٩١) .

فى فبراير سنة ١٧٨٧ وكان لود فيج يبلغ من العمر سبعة عشر عاماً ، ورغما عما كان يحصل عليه من دخل طيب استأذن استاذه فى أن يرحل إلى فينا فأذن له ، وكانت رحلته شاقة استغرقت شهراً وصل بعدها إلى عاصمة الموسيقى والغناء ، ومهد حضارة أوربا الوسطى فى القرن الثامن عشر . كان لود فيج يعتقد بأنه لا أمل لموسيقى فى أن يصل إلى الشهرة ألا فى فينا .

فى تلك الفترة كان « موزار » العظيم محط أعجاب أوربا بأكملها . تمكن لود فيج الشاب من أن يجلس أمام موزار فى ٧ أبريل سنة ١٧٨٧ ليعزف . اعتقد موزار لأول وهله بأن هذا الشاب قد استوعب مقطوعة موسيقية عن ظهر قلب وجاء ليعزفها أمامه ، عندما شعر لود فيج بذلك رجا موزار أن يسمح له بجلسة أخرى وأن يختار له بنفسه قطعة لكى يعزفها أمامه وعندما تم للود فيج ما أراد انتقل موزار إلى الغرفة المجاورة وقال لأصدقائه الذين حضروا جلسة الاستماع « تذكروا هذا الشاب ، أنه سيلفت أنظار العالم إليه » وقبل أن يعطى دروساً للود فيج ، لكن لود فيج أصيب بخيبة أمل إذ أن موزار العظيم لم يكن لديه الوقت لكى يعزف أمامه مما حدا بلود فيج إلى أن ينهى إقامته فى فينا لا سيما وأن المرض كان قد اشتد على والدته فعاد إلى بون وتوفيت والدته فى ١٧ يونيه من نفس العام . كتب لود فيج بعد ذلك إلى صديقه الدكتور « فون شادن » يقول « لقد رأيت والدتى فى حالة صحية غاية فى السوء ، لقد كانت مصابة بالسل الرئوى ثم توفيت بعد أن عانت طويلا ، لقد كانت لى أما طيبة حنوناً وكانت لى أيضاً أحسن صديقة » . أثرت وفاة والدته كثيراً على والده فزاد من إدمانه على الشراب حتى أن لود فيج الشاب كان يجوب حانات بون فى ساعة متأخرة من الليل باحثاً عن والده لكى يعيده إلى المنزل وأن ينقذه من يد البوليس إذا ما تردى بشوارع بون ثملا .

لودفيج فان بيتهوفن يقابل هايدن ويعود إلى فينا :

فى يونيه سنة ١٧٩٢ وكان الموسيقار العظيم فرانز جوزيف هايدن (١٧٣٢ — ١٨٠٩) عائداً من لندن إلى فينا ماراً ببون رجاه الكونت

« فالد شتاين » ، وكان يلقب بصديق الفنانين ، أن يستمع إلى قطعة موسيقية كتبها شاب من البلدة اسمه لود فيج فان بيتهوفن وأطلق عليها اسم « أغنية لجوزيف الثانى » ، استمع إليها هايدن وأعجب بها وكتب بعد ذلك إلى الشاب بيتهوفن يقول «أننى لاأشجعك فقط على الاستمرار فى دراساتك الموسيقية بل اقترح عليك أن تستمر فيها معى فى فينا » .

كانت أحوال بيتهوفن المالية لا تسمح له بتحمل نفقات السفر إلى فينا فسارع الكونت « فالد شتاين » فقدم إليه مساعدة مالية كبيرة لكى يسافر إلى فينا ودون بخط يده فى مفكرة الشاب بيتهوفن عند سفره « عندما تبذل مجهوداً مستمراً ستتشبع بروح موزار من أيادى هايدن ، صديقك الوفى — فالد شتاين (وقد أهداه بيتهوفن بعد ذلك فى سنة ١٨٠٣ قطعة موسيقية اسماها « فالد شتاين سوناتا » وقال بأنه يمكنه أن يشكر بالموسيقى أحسن مما يتمكن بالكلمات ، وبذلك ترك بيتهوفن بون نهائياً ولم يعد إليها فى حياته .

نحن الآن فى فينا فى شهر نوفمبر سنة ١٧٩٢ ، وكان موزار قد توفى فى شهر ديسمبر من العام الماضى وكان هايدن قد بلغ الستين من عمره ، وكانت الثورة الفرنسية وأفكار جان جاك روسو تجد صدى لها فى كافة أنحاء أوربا ، وأمام هذا التيار الجديد أعلن بيتهوفن بأن نزعته جمهورية .

فى فينا بدأ بيتهوفن يتلقى دروساً من هايدن ولكن سرعان ما تبين له بأن هايدن منغمس فى كتابة الموسيقى وليس لديه من الوقت ما يكفى لتلميذه الطموح فانتقل بيتهوفن ليدرس على يد بعض الأساتذة الموسيقيين الآخرين وفى مقدمتهم الموسيقار الإيطالى « انطونيو ساليرى » ١٧٥٠ — ١٨٢٥) .

وفى ١٨ ديسمبر من نفس العام توفى جوهان بيتهوفن فأصبح لود فيج بيتهوفن وهو فى الثانية والعشرين من عمره المسئول الأول عن عائلته ووقع عليه عبء مواجهة مطالب أخويه شارل وجـــان .

بيتهوفن يزحف نحو المجـــد :

فى ٢٩ مارس سنة ١٧٩٤ أعطى بيتهوفن أول كونشرتو له فى « بورج

تياتر » وكان هذا الكونشرتو بداية الطريق لشهرة بعيدة المدى ولم يعد أحد يشك فى قدراته الموسيقية النادرة فدعى فى النصف الأول من عام ١٧٩٦ لإعطاء كونشرتو فى روزمبرج وبراج ودرسدن وبرلين وأصبحت له الآن عدة قطع موسيقية للبيانو والأوركسترا ، وقبل مغادرته برلين فى يونيه سنة ١٧٩٦ أهداه الملك فردريك غليوم الثانى صندوقاً صغيراً مملؤاً بالنقود الذهبية ، وهى الهدية التى كان الملك يقدمها عادة إلى السفراء .

لم يكن فى العصر الذى عاش فيه بيتهوفن جوائز فنية أو أدبية أو حقوق للمؤلفين ولم يكن للموسيقيين من أمل فى كسب قوتهم ألا اكتساب صداقة أمير أو عطف نبيل أو أحد الأثرياء الذين يحبون الثقافة الموسيقية ، وكان هذا هو حال بيتهوفن . لحسن الحظ كان على هؤلاء الأمراء والنبلاء والأثرياء تقليد يلزمهم معنوياً بتشجيع الرسامين والكتاب والموسيقيين وأهل الفنون ، وأهداء بيتهوفن لكثير من مؤلفاته إلى أسماء من تلك الطبقات مثل « فالد شتاين » و رازوموفسكى » و « الأرشيدوق » و « فرانسوا دى برانسويك » وغيرهم خير شاهد على ذلك .

بعد سنتين من إقامة بيتهوفن فى فينا تعرف على الأمير « موريتز فون ليشنوفسكى » وكان بيتهوفن يكبره بعامين وتوطدت صداقة بينهما . وفى سنة ١٧٩٥ انتقل بيتهوفن إلى الإقامة فى قصر الأمير وظلا يتناولان طعامهما سوياً ، غير أن بيتهوفن لم ترقه حياة الترف والراحة هذه فسرعان ما انتقل إلى مسكن متواضع وعاد يتنقل بين المطاعم الشعبية ليتناول وجبات طعامه . لم يمنع هذا الأمير ليشنوفسكى من أن يقدم لبيتهوفن مساعدات مالية وأن يهديه قيثارتين ثمينتين ، وظل هذا الأمير مستمراً فى مساعدة بيتهوفن إلى أن توفى فى سنة ١٨١٤ .

كان بيتهوفن وهو الآن فى الخامسة والعشرين من عمره مؤلقاً للموسيقى وكان يعتبر أحسن عازف على البيانو فى فينا فكان يعطى دروساً خصوصية لزوجات وبنات الأمراء وكان على حق أن يكون فخوراً بما أمكنه أن يصل إليه حتى الآن .

من الطريف أن بيتهوفن كان أول الموسيقيين فى عصره الذين كانوا يتناولون طعام العشاء على موائد الأمراء والنبلاء والارستقراطيين إذ كان المعمول به فى عهد موزار أن يتناول الموسيقيون طعام العشاء مع الخدم قبل إقامة الحفلات الموسيقية فى قصورهم .

من الأمراء الذين اضفوا رعايتهم على بيتهوفن ، الأرشيدوق « رودلف » « كاردينال اولموتز » وقد تتلمذ على يد بيتهوفن وأهداه بيتهوفن من بين ما أهداه (سوناتا ليزآديو Les Adieux سنة ١٨٠٩) ، كما وجد حامياً آخر فى شخص الأمير — « رازموفسكى » سفير روسيا فى النمسا ، وقد أهداه بيتهوفن بعض مؤلفاته الموسيقية سنة ١٨٠٥ . والأمير لوبكوفيتس والأمير كينسكى ، وفى سنة ١٨٠٥ أيضاً كتب موسيقى أوبرا « فيدليو » .

غراميات بيتهوفن :

كانت لبيتهوفن غراميات كثيرة منذ شبابه ولكن كل واحدة منها لم تدم طويلا لأنها لم تكن من مستواه الاجتماعى فى عصر كان هذا المستوى هو طابع المجتمع الذى عاش فيه والذى كان على صلة به ، غير أن غرامه الكبير كان فى سنة ١٨٠١ مع سيدة من أصل إيطالى اسمها « جولييتا جيشاردى » ، كانت تتلقى دروسا منه وكانت على جانب كبير من الجمال . تحطمت آمال بيتهوفن عندما تزوجت جولييتا من كونت إيطالى وانتقلت معه إلى الإقامة فى نابولى . أهداها بيتهوفن قطعة موسيقية خالدة اسماها Sonata al chiaro di luna . بعد بضع سنوات عادت جولييتا إلى فينا وحاولت مقابلة بيتهوفن ولكنه رفض رؤيتها وكان لهذا الحادث أثراً عميقاً على نفسيته إلى درجة أنه فكر فى أن يهجر الموسيقى وظل بيتهوفن يحتفظ بصورة لتلك السيدة فى مسكنه إلى أن توفى .

وفى سنة ١٨٠٦ وقع بيتهوفن فى غرام فتاة مجرية اسمها « تيريزفون برانسويك » كما أصبح صديقاً لأخيها « فرانز » وأختها « جوزفين » ، وأعلن خطبته عليها فى شهر مايو من نفس السنة . كان غرام بيتهوفن بهذه

الفتاه مصدر إلهام له فى أحلى مؤلفاته الموسيقية وهى السمفونية رقم ٤ ، والسيمفونية رقم ٦ « باستورال » و « سوناتا أباسيوناتا » ، وقد انتهى منها فى سنة ١٨٠٨ ، وقدمت لأول مرة إلى الجمهور — (السيمفونية رقم ٦ والسيمفونية رقم ٥) فى حفل كونشرتو بفينا يوم ٢٢ ديسمبر من نفس العام ، وقد أهدى بيتهوفن السيمفونيتين إلى الأمير لوبكوفيتس والكونت رازوموفسكى . وسيمفونية الباستورال من أطول السيمفونيات ، وفيما عدا ما جاء بها من الحان العاصفة فانها أيضاً من أهدأ السيمفونيات ، وبذلك فهى تجمع ما بين القوة والطبيعة الهادئة .

غير أنه فى عام ١٨١٠ لم تكتمل أحلام بيتهوفن إذ أرادت والدة تيريز أن تزوجها من أحد أفراد الطبقة الارستقراطية فقطعت خطوبتها لبيتهوفن ولكن رغما عن ذلك فقد رفضت تيريز كل عروض الزواج وظلت على وفائها للودفيج فان بيتهوفن .

مما يدعو إلى الدهشة أن الكاتب الفرنسى الشهير « أندريه موروا » عضو الأكاديمية الفرنسية يقول فى دراسة له عن حياة لودفيج فان بيتهوفن أنه يميل إلى الاعتقاد بأن غرام بيتهوفن لم يكن فى الواقع من أجل تيريز بل كان لاختها جوزفين التى كانت قد تزوجت للمرة الثانية من رجل متقدم فى السن هو الكونت « ستاكلبرج » دون أن تتوقف عن رؤية بيتهوفن ، ويؤكد أندريه موروا اعتقاده هذا بأن جوزفين قد أنجبت طفلة فى أبريل سنة ١٨١٣ أسمتها « مينونا » فى الوقت الذى كانت فيه جوزفين منفصلة عن زوجها منذ مايو إلى ديسمبر سنة ١٨١٢ ويتساءل « أندريه موروا » عمن يكون والد تلك الطفلة ويجيب بأنه بيتهوفن .

عاهـــة الصمم :

شعر بيتهوفن ما بين سنة ١٧٩٦ وسنة ١٨٠٠ بأعراض ضعف السمع . فى ربيع سنة ١٨٠١ وبينما كان بيتهوفن يعزف على البيانو فى صالون كبير به جمع من الأصدقاء وإذا بصوت الموسيقى ينقطع فجأة من أذنيه فتوقف

عن العزف . قال الحاضرون بأنه قد أصيب بمرض مفاجىء فى أصابعه وظل بيتهوفن صامتا لا يفضى لأحد بحقيقة ما أصابه حتى كتب إلى صديقه «كارلو آميندا » فى أول يونيه سنة ١٨٠١ يقول « أن صديقك بيتهوفن فى حالة حزن عميق ، أن أنبل حواسى وهى حاسة السمع قد أصيبت بوهن شديد ، وأن هذا الوهن يزداد يوما بعد آخر ، ولا أحد يدرى إن كنت سأستعيد سمعى يوما ما » وفى نهاية الخطاب يرجوه بأن يحتفظ بموضوع صممه سرا عميقا لا يفضى به إلى أى شخص مهما كان ولأى سبب . فى نفس الشهر كتب بيتهوفن إلى الطبيب « فيجيلر » يقول « منذ عامين تقريبا وأنا أتفادى المجتمعات لأننى لا أتمكن من أن أقول لهم بأننى أصم ، إن كنت أمارس مهنة غير مهنتى الحالية لكان اعترافى بهذه الحقيقة سهلا ولكن بالنسبة لموسيقى فان اعترافه بهذه الحقيقة يكون كارثة له ، ولا سيما بالنسبة لأعدائى وعددهم ليس قليلا ، ولكى أعطيك فكرة عن حالتى فاننى أجلس فى التياترو قريبا جدا من الأوركسترا حتى أتمكن من فهم الممثل وإن جلست بعيدا قليلا فلا يمكننى أن أسمع نغمات الآلات العالية ولا المغنيين وإن بعدت أكثر قليلا فلا أتمكن من سماع شىء على الإطلاق » .

بعد إصابة بيتهوفن بالصمم كان يتخذ مكانه على المسرح قريبا جدا من الأوركسترا ، كان فى بعض الأحيان يلتقط الألحان ولكن لا يتمكن من سماع الكلمات ، وكان يستاء كثيرا إذا ما رفع أحد صوته ليسمعه كلامه ، كان فى أواخر أيام حياته يتمكن من تمييز الأصوات المنخفضة ولم يكن ذلك إلا عزاء متواضعا لموسيقى فى حاجة إلى أن يسمع كل لحن ونغم مهما تفاوت وتنوع .

فى سنة ١٨٠٢ أشار عليه طبيبه الخاص « شميدت » بالانتقال إلى « هايليجنشناد » ليستريح بها وهى قرية صغيرة تبعد عن وسط فينا ببضعة كيلومترات . مر بيتهوفن أثناء إقامته بتلك القرية بحالة نفسية خطيرة وخلال إقامته بها كتب السيمفونية رقم ٣ التى أطلق عليها Sinfonia Eroica التى كان ينوى أن يطلق عليها « سيمفونية بونابرت » رمزا لإعجابه بنابليون

ولكنه عندما انتهى منها فى يوليه سنة ١٨٠٤ وعلم بأن نابليون قد توج امبراطورا عدل عن هذه التسمية وأطلق عليها « سيمفونية أيروويكا — كتبت لتخليد ذكرى رجل عظيم » . كان بيتهوفن قد بلغ من العمر ٣٢ سنة ولكنه لم يكن قد كتب بعد أجمل ما كتب ولم يكن أعطى بعد أحلى ما عنده .

تساءل المؤرخون عن سبب العاهة التى أصيب بها بيتهوفن وقالوا هل كانت بسبب إدمان والده الشراب وإصابة والدته بالسل الرئوى عندما ولد . إن تشخيص ما أصابه فى جيلنا الحاضر سهل فقد كان مرضه يعزى إلى تجبس عظيمات الأذن الداخلية وهى تعالج الآن بعملية جراحية أو بتركيب جهاز سمع يعيد السمع إلى المريض . كانت هناك أجهزة تساعد على السمع فى مثل تلك الحالات أيام حياة بيتهوفن ولكنها كانت من الضخامة والتعقيد ما يجعل حاملها عرضة لسخرية الناس فضلا عن أن فائدتها لم تكن محسوسة ، لذلك فضل بيتهوفن أن يروض نفسه على استعمال طريقة ابتكرها لنفسه وهى الاحتفاظ « بدفتر محادثات » كان يدون فيه تعبيرات مختصرة ودقيقة جعلت له من هذا الدفتر مصدرا لما يريد أن يحصل عليه من معلومات .

كتب بيتهوفن من قرية « هايليجنشتاد » إلى أخويه شارل وجان كتابا بتاريخ ٦ أكتوبر سنة ١٨٠٢ يطلب إليهما الاطلاع عليه بعد وفاته ، كتبه بمرارة وكأنه وصية ، جاء به « إلى الرجال الذين يعتقدون بأننى لست ودودا ويجدوننى عنيدا حقودا سريع الانفعال . إنكم تظلموننى بهذا الحكم ، أنكم لا تعلمون السبب الخفى لما يبدو لكم بأننى كذلك . أن قلبى كان مشدودا مع فكرى منذ شبابى بشعور رقيق للخير . كنت أشعر بأننى مؤهل للقيام بأعمال عظيمة . هل تصدقون بأننى أصبت منذ ست سنوات بعاهة خبيثة أدت عدم قدرة الأطباء إلى تفاقمها » ، ويضيف « كيف كان يمكننى أن أعترف بضعف حاسة كان يجب أن تكون لى أكثر كمالا مما هى لدى الآخرين » .

ثم « وأى هوان أشعر به وأنا أقيم فى هذه القرية الهادئة التى أشار على الأطباء بالإقامة بها لكى أريح سمعى أن يسمع شخص يقف بجانبى نغمات

الناى من بعيد وأنا لا أسمع منها شيئا ، وأن يسمع غناء الراعى وأنا لا أدرى ماذا يقول ، أن هذه الحالة تؤدى بى إلى اليأس ، إننى على وشك أن أنهى هذه الحياة ، ولكن الموسيقى ، والموسيقى فقط هى التى تمنعنى من الإقدام على ذلك . لا يمكننى أن أهجر هذا العالم قبل أن أتمم كل ما أشعر بأن قدرى يدعونى لأن أتممه ، ولهذا السبب فقط أحافظ على هذه الحياة التعيسة » .

وبعد أن أوصى بأن يرثه أخواه ، شكر أصدقاءه وخاصة الأمير ليشنوفسكى والبروفسور شمدت وطلب إلى أخويه أن يرفقا بهذا الكتاب وصفا لمرضه يكتبه الدكتور شميدت — إن كان لا يزال على قيد الحياة — حتى يمكن للعالم أن يقدر موقفى بعد وفاتى .

بعد أربعة أيام عاد فكتب إلى أخويه يستودعهما ويقول بأنه يتهاوى كأوراق الشجر فى فصل الخريف وينادى ربه فيقول « يا إلهى .. دعنى أشعر ولو يوما واحدا بأننى سعيد ، إننى لم أشعر بهذا اليوم منذ أمد طويل ... متى يا إلهى سأتمكن من سماع صدى السعادة فى نفسى » . كان بيتهوفن يبلغ من العمر وقتذاك الثانية والثلاثين من عمره يتقلب فى أحلك أيام اليأس والقنوط ولكنه تمكن رغم ذلك من أن يجتاز محنته الرهيبة وأن يسعد الملايين .

عرف عن بيتهوفن الكبرياء الشديد ،حدث مرة أن كان مدعوا للعزف على البيانو فى قصر الأمير « ليشنوفسكى » تكريما لفريق من الضباط الفرنسيين ، وبينما كان بيتهوفن يتقدم ليأخذ مكانه على البيانو لاحظ بأن بعض الضيوف لا يزال يتبادل الحديث كما لو كان غير مكترث بأهمية الموسيقار العظيم القادم لكى يعزف له . جلس بيتهوفن على مقعده أمام البيانو وانتظر لحظة وعندما لاحظ بأن ضجيج الضيوف لم يخف انسحب فى هدوء واختفى عن الأنظار دون أن يتفوه بكلمة واحدة ، وفضلا عن الكبرياء الشديد فقد كان حاد الطبع عصبى المزاج لدرجة لم يحتملها الكثيرون . كان يغادر المكان فى أى حفل أن ذكر اسم موسيقى آخر أثناء الحفل وكان لا يأبه وهو جالس إلى مائدة الطعام بجوار الأمراء والنبلاء أن يتصرف

كما يحلو له غير مكترث بتقليد أو بنظام ، ولكنه مع كل ذلك كان محبوبا وله أصدقاء كثيرون .

فى شهر مايو سنة ١٨٠٩ قذفت مدفعية نابليون ضواحى فينا وأمام تهديد الجيوش الفرنسية للمدينة هجرها البلاط الأمبراطورى والأمراء والنبلاء ، وانزوى بيتهوفن فى مخبأ يعانى من أصوات طلقات المدافع التى كانت تسبب له آلاما شديدة فى أذنيه وصفها بعد ذلك بقوله « حياة مضطربة تعيسة حولى ليس فيها سوى قصف المدافع والبؤس بكافة أشكاله » . كان هذا الغزو سببا فى أن يتبدل شعور الإعجاب الذى كان يكنه بيتهوفن لنابليون . كتب بيتهوفن فى تلك الأثناء آخر كونشرتو له للبيانو والاوركسترا رقم ٥ وقد أطلق عليه « الامبراطور » ، ويقول المؤرخون بأنه يعتقد بأن الناشر هو الذى أطلق على هذا الكونشرتو اسم الامبراطور لأن بيتهوفن نفسه لا شك فى أنه كان يعارض تلك التسمية معارضة شديدة ، ومهما كان من الأمر فقد أنتج بيتهوفن وسط الجو العاصف الذى سيطر على فينا وقتئذ عملا من أروع أعماله وأكثرها عمقا وجمالا . وكما هو معروف فقد انتصر النمساويون على جيوش بونابرت فى شهر يوليه من نفس العام ووقعت معاهدة الصلح فى ديسمبر سنة ١٨٠٩ .

بيتهوفن وجوته :

كان بيتهوفن يعجب بـ « وولفجانج جوته » قبل أن يتعرف عليه وكانت أشعاره تدخل السرور إلى نفسه ، ففى سنة ١٨١٠ كتب الموسيقى لقصة Le Comte d' Egmont التى ألفها جوته سنة ١٧٨٧ ، وفى سنة ١٨١٢ قابل جوته لأول مرة عن طريق سيدة صديقة للطرفين اسمها « بيتينا برنتانو » : كانت طباع بيتهوفن تختلف اختلافا كبيرا عن طباع جوته حتى يمكن أن تجمعهما صداقة دائمة فبينما كان الأول متحررا مندفعا حاد الطبع لايستقر على حال ولا يعير للتقاليد بالا كان الثانى رزينا دبلوماسيا رقيق الطباع مهذبا : فى سنة ١٨١٢ كان بيتهوفن قد بلغ الثانية والأربعين عاما بينما كان جوته فى الثانية والستين .

كتب جوته — بعد أن استمع إلى عزف بيتهوفن — إلى أحد أصدقائه من نقاد الموسيقى يقول « لقد أدهشتنى عبقرية هذا الرجل ولكنه لسوء الحظ شخصيته ثورية يصعب تهدئتها ، أنه يجد الناس جميعا يستحقون البغض وهذا لا يجعله لطيفا مع نفسه أو مع غيره ، ولكن يجب التماس العذر له والرثاء لحالته فهو يفقد حاسة السمع شيئا فشيئا الأمر الذى يجعل صلاته بالمجتمع مؤلمة » . ثم يضيف جوته « أن بيتهوفن بطبعه قليل الكلام ويميل إلى الصمت بسبب تلك العاهة التى زادت من صمته » . اعترف جوته بأنه لم يسبق له أن رأى فنانا له حساسية بيتهوفن ولا تركيزه ولا نشاطه الكبير . وقد وصف السيمفونية رقم ٥ بأنها موسيقى غاية فى الروعة . ولم يعد جوته بعد سماعه لتلك السيمفونية إلى سماع موسيقى بيتهوفن « محافظة على هدوء نفسه ومشاعره » .

كان بيتهوفن وهو الآن فى أوج عظمته يؤمن بالنظام الجمهورى ومعجبا بالثورة الفرنسية . كان شعوره هذا يدعو إلى الدهشة لأن يصدر من شخص كل ما رآه فى حياته من خير حصل عليه من قصور الأمراء ولكن المؤرخين يعزون هذا الشعور إلى ما يكون بيتهوفن قد لمسه فى هؤلاء الأمراء عندما اندمج فى أوساطهم . كتب بيتهوفن مرة إلى الأمير « ليشنوفسكى » الذى كان يضفى عليه الحماية والرعاية « أيها الأمير ، كونك أميرا ... جاءك ذلك بمحض الصدفة لأنك ولدت أميرا . أما أنا ... فما أنا فيه فهو من صنعى ... عن الأمراء ... فهناك الكثيرون منهم وسيكون هناك منهم الآلاف ، ولكن لن يكون هناك إلا بيتهوفن واحد » .

بيتهوفن يعانى المرض والفاقه :

دخل بيتهوفن حياة العوز والحاجة فقد توفى كثير ممن كانوا يمدون إليه يد المساعدة وازدادت كراهيته للبشر وابتعد عن كثير ممن كانوا على استعداد لمعونته حتى أنه كان يقول بأنه يحب الأشجار أكثر مما يحب البشر ، وازدادت حالته سوءا حتى أصبح لا يقوى على الخروج من مسكنه أن أمطرت السماء لأنه لا يملك حذاءا سليما يسير به تحت المطر ولم تكن هذه

الحالة بسبب عدم قدرته على الكسب بل لبعثرته للمال وعدم رعايته لشئونه المنزلية . اقترح عليه « مالزل » الذى كان يصنع له سماعات الأذن أن يكتب مارش عسكرى يشيد فيه بانتصار الجنرال « ويلنجتون » على نابليون ، وقام بيتهوفن أمام ضغط الحاجة — بتنفيذ الفكرة وإتمام السيمفونية السابعة ونصر ويلنجتون ، وقوبلت بنجاح كبير عند أول تقديم لها فى ديسمبر سنة ١٨١٣ ، وتمكن من الحصول من مارش نصر ويلنجتون على دخل أكبر مما حصل عليه من كل سيمفونياته .

وعندما عقد مؤتمر القمة فى فينا فى نوفمبر سنة ١٨١٤ للنظر فى مستقبل العالم بعد سقوط نابليون والتجائه إلى جزيرة البا نظم امبراطور النمسا عدة احتفالات ضخمة ومن ضمن تلك الاحتفالات حفل استقبال كبير بقصر « رازومفسكى » قدم فيه بيتهوفن إلى مجتمع الارستقراطية الأوربية ونال فيه إعجاب وتقدير رؤوس أوربا المتوجة إذ عزف لهم فى ذلك الحفل التاريخى « لحظة المجد » و « نصر ويلنجتون » والسيمفونية السابعة » . وأغدقوا عليه الهدايا والهبات المالية . وكانت هذه آخر مرة يعزف فيها أمام جمهور كبير ، كما كانت أسعد أيامه .

أراد بيتهوفن أن يكتب قطعة موسيقية لقداس كنائسى فظل عاكفا عليها إلى أن انتهى منها سنة ١٨٢٠ وكان يعتزم تقديمها فى مناسبة تعيين الأرشيدوق رودلف كاردينالا وأسماها Missa Solemnis وهى تعتبر أجمل وأحلى ألحان كنائسية كتبها موسيقى على ممر الأجيال .

بلغ بيتهوفن قمة عظمته عندما أتم — وهو يعانى من المرض ومن مشاكله المالية — السيمفونية التاسعة التى أراد أن يتوجه بها إلى الرجال ليظهر لهم الطريق إلى الأخوة والسعادة . أنهى بيتهوفن هذه السيمفونية بعد أحد عشر عاما من ظهور السيمفونية الثامنة وتمكن من تقديمها فى مايو سنة ١٨٢٤ بواسطة أوركسترا بقيادة المايسترو « شوبانزيج » . بلغ حماس الجماهير لتلك السيمفونية درجة منقطعة النظير ، كان بيتهوفن يجلس بجوار الأوركسترا لا يسمع شيئا من الألحان ولا من تصفيق الجمهور الذى كان يدوى مثل

الرعد . أخذ أحد الفنانين بيد بيتهوفن وقدمه إلى جمهور الحاضرين لكى يرى بعينيه هذا الجمهور الذى امتلأ حماسا ، انحنى بيتهوفن تحية للجمهور بينما عيناه تذرفان الدموع ثم وقع على خشبه المسرح مغشيا عليه وظل فى حالة إغماء طوال الليل . كان بيتهوفن يأمل فى أن يتمكن من الحصول على مبلغ من المال من القطعتين الأخيرتين لإصلاح أحواله المالية ولكنه لم يوفق فدون فى دفتر يومياته والأسى يسيطر على نفسيته « أن أهم ما عند الطبقة الارستقراطية هو الرقص ، وفى فينا لا أحد يهتم إلا بالخيول والراقصات » .

تدهور صحة بيتهوفن :

فى سنة ١٨٢٥ أصيب بيتهوفن بمرض النقرس ولكن لم يمنعه مرضه هذا من كتابة سيمفونيته العاشرة ، كان لا يغادر مسكنه وكان أخوه جان يساعده ماليا ويدفع له إيجار الغرفة الرطبة التى يقيم فيها .

فى ديسمبر سنة ١٨٢٦ اعتذر بيتهوفن عن قبول مساعدة أخيه المالية وانتقل من قرية « مودلينج » القريبة من فينا حيث كان يقيم إلى فينا إلا أنه أصيب بالتهاب رئوى وآلام فى الكبد والأمعاء وانتفاخ فى رجليه وتبين بأنه قد أصيب بالالتهاب البللورى فأجريت له عملية استخراج سائل من الرئة . أدت العملية إلى تحسن بسيط فى صحته ولكنها عادت إلى التدهور ثانية .

فى ٢٦ مارس سنة ١٨٢٧ طلب بيتهوفن أن يعطى السر المقدس الأخير وهو فى دور الاحتضار دخل بعده فى غيبوبة تامة ومات بعد ظهر نفس اليوم بالغا من العمر ستة وخمسون عاما .

اشتركت جماهير غفيرة من سكان فينا فى تشييع جثمان الموسيقى الخالد فأعلنت المدارس توقف الدراسة بها واصطف الجنود تحية أخيرة له . حمل بساط الرحمة عشرة رؤساء أوركسترا .

لودفيج فان بيتهوفن أمام التاريخ :

عاش بيتهوفن الخالد فى نزاع دائم مع الحياة . عاش بين الأمراء والنبلاء ليدخل السرور إلى نفوسهم ولكنه — كما يقول — لم يسعد يوما فى

حياته . كانت حياته هى الموسيقى ، والموسيقى وإن كانت — كما يقول فاجنر — هى توضيح كنه المشاعر الإنسانية وجمال الطبيعة — فهى أيضا تعبير عما فى النفس من حب للحياة ومباهج الوجود ، وموسيقى بيتهوفن ليست حزينة بل فيها القوة والهدوء وفيها التعبير عن الفخامة والبساطة بألحان تهز المشاعر بقوة تارة وتحنو عليها بلمسات الحب تارة أخرى ، وتنتزع من بين أعماق النفس مكنونها لكى تصيغه للقلب إحساسا بالرضى بالحياة . قيل بأن بيتهوفن وهو يكتب الموسيقى إما أن يحلق فى السماء أو يشعر بسعير الجحيم . إن المرء ليدهش حقا كيف يتمكن إنسان مثل بيتهوفن تبرم بالحياة منذ طفولته وحرمته الطبيعة من أعز ما يأمل فيه وهو حاسة سمعه من أن ينفذ إلى قلوب الملايين بالتعبير عن أحلى ما فى هذه الحياة من مباهج .

كتب بيتهوفن قطعا موسيقية ستظل خالدة خلود الدهر ، كتب السيمفونيات الثالثة والرابعة والخامسة والسابعة والثامنة التى سمعها فقط من خلال عقله .

كان بيتهوفن يمتلك كنزا ضخما من الثروات النادرة فى ملكات الإنسان وقد حولها إلى ألحان وتعبيرات تهز المشاعر وتنفذ إلى القلوب وتدخل السعادة والرضى بالحياة إلى النفس البشرية ، الحياة التى وجد بيتهوفن السعادة فيها بتأمله فى الطبيعة وقدرة الخالق .

ترك بيتهوفن للبشرية ثروة ضخمة ستظل إلى ما شاء الله مصدر سعادة واطمئنان لملايين القلوب فاستحق الخلود على ممر الأجيال والعصور .